دراسة وتحليل

الجواهري شاعر العراق

للأستاذ محمد رجب البيومي

— ١ —

منذ عام نزل الشاعر العراقي الكبير الأستاذ محمد مهدي الجواهري ضيفا كريما على مصر ، وقدمته الصحف المصرية إلى قرائها تقديما ينبئ عن مكانته الأدبية الممتازة في عالم الشعر ، وكنت أقابل كثيرا من الأدباء والمثقفين في ربوع وادي النيل ، فأجدهم لا يروون شيئا من قصائد الشاعر العراقي، ويتطلعون في لهفة وشوق إلى أثر من آثاره فلا يجدون ، إذ أن الصحف المصرية لم تنشر له قبل ذلك ما يصله بالقراء والمتأدبين . وأذكر أني فتشت في كثير من مجلاتنا الأدبية فلم أعثر على شيء يذكر ، إذا استثنيت ثلاث قصائد نشرت في آماد بعيدة متفرقة بأبولو والرسالة والكاتب المصري . وزاد الطين بلة أن الكاتب الفاضل الأستاذ عبد الخالق طه قد نشر بمجلة الثقافة الغراء (يونية سنة ١٩٥١) مقالين كبيرين عن الشاعر العراقي ، فأعطى القراء بمصر عنه فكرة غير تامة ، إذ اعتمد في بحثه على ديوان الشاعر الصادر في أوائل سنة ١٩٣٥ مع أن الجواهري لم يبرز في مضمار الإبداع إلا بما قاله بعد صدور هذا الديوان من قصائد طافرة ممتازة تحتل مكانها اللائق في الأدب والتاريخ . وكأن الكاتب قد أحس بتقصيره فوعد القراء أن يطالعهم ببحث جديد عن الشاعر في عهده الأخير ، ومضى أكثر من عام دون أن يفي الأديب بما وعد؛ فرأيت لزاما علي أن أقدم الشاعر للقراء من جديد

وقد طرق الجواهري أبواب الشعر فنظم في الغزل والرثاء والوصف والسياسة والاجتماع ، غير أنه تبوأ مكانته الأدبية بقصائده السياسية التي عبرت تعبيرا صادقا عن مشاعر العرب في شتى بقاع العربية . والحق أن الشعر السياسي قد ارتفع على يده إلى قمة عالية أعادت إليه سابق مجده في مطلع هذا القرن، حين كان حافظ ونسيم والمصري والكاشف ومحرم وعبد المطلب في مصر،

أهل مكة قبل الفتح وكانت قريش قد نقضتها مرارا فلما رآها النبي رحب فيها ثم نزل بها من القرآن آية الممتحنة (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار) ولما جاءها أخواها الوليد وعمارة ابنا عقبة لم يعطها النبي إياها مستندا على نقض قريش العهود فبقيت أم كلثوم في مكة حتى تزوجها فيما بعد زيد بن حارثة

ومنهن أميمة بنت بشر الأنصاري زوجة حسان بن الدحداح القرشي المشرك المادي لرسول الله (ص) لما رأت أن عز الاسلام ارتفع وأن أهلها أسلموا بالمدينة وهي في مكة مع زوجها فرت منه وأتت المدينة مشتاقة إلى الاسلام فلما وصلت هم النبي بأن يردها إلى زوجها لولا نزول آية الممتحنة تلك التي نزلت بحق أم كلثوم بنت عقبة التي مر ذكرها فزوجها الرسول مسهلا ابن حنيف فولدت له عبدالله بن سهل

وهذه زينب ابنة الحارث أخت مرحب الفتاة اليهودية التي حفزها البغض والحقد والطلب بالثأر فعملت شاة وسمتها وأتت رحل النبي عندما كان بخيبر فلما جاء النبي رحله قدمت الشاة له وهو لا يعرفها فجلس هو وأصحابه ليأكلوا فمد يده الشريفة إلى ذراع الشاة فأخذ شيئا منه فلما مضغه وابتلعه وعرف ما به أمر من كانوا معه بالكف عن الأكل وقال : — (كفوا أيديكم فإن هذه الذراع تخبرني أنها مسمومة) ولما مات بشر بن البراء من السم أمر النبي بإحضار زينب وقال لها : — (سممت الشاة؟) قالت : — (من أخبرك ؟) قال : — (الذراع) قالت : — (نعم) قال : — (فما حملك على ذلك ؟) قالت : — (قتلت أبي وعمي وزوجي ونلت من قومي ما نلت فقلت إن كان نبيا فستخبره الشاة وإن كان ملكا استرحنا منه) فقتلها النبي . قيل ولما مرض مرضه الأخير (ص) قال : — (مازالت أكلة خيبر يصيبني منها عداد حتى كان أوان أن تقطع أبهري) وقبضه ربه إليه متأثرا من ذلك السم . كتبنا إليك هذا أيتها المرأة المسلمة كي تتخلق بأخلاق الخيرات المسلمات اللواتي كن يغمر الإيمان قلوبهن فضحين لديهن كل غال ورخيص

للمراغي

ناصر سعد

والزهاوى والرصافى والكاظمى فى العراق، يهزون الشاعر هزا عنيفا بما يبدعونه فى هذا المضمار ، فلم تكن ثمر حادثة كبيرة أو صغيرة إلا رأيت لها صدى قويا يبعثه الشعر السياسى فى النفوس ، وقد نضطر إلى إيجاد فارق هام بين ما قاله شعراء العراق فى الميدان السياسى وما قاله شعراء مصر ، فأولئك كانوا قادة جماهير ، وموجهى نفوس ، بقصائدهم الحماسية ، وهؤلاء كانوا صدى لما يتجاوب فى الميدان السياسى فحسب ، فهم ينظرون إلى اتجاه الشعب وميوله ثم يعبرون عن مشاعره ، دون أن يسبقوه بإيقاظ وتوجيه ، وقد بقى هذا الفارق إلى يومنا هذا ، فهذيك فرق شاسع بين ما يقوله الجواهرى فى قصائده السياسية ، وبين ما نطالعه لشعرائنا المصريين فى الأفق السياسى على قلته وندرته ، بل أخشى أن أقول إن الشعر السياسى قد مات موتا على يد هؤلاء العائمين فى آفاق الخيال ، ومتاهات الذهول . ولولا كارثة فلسطين وحوادث القتال الدامية لما سمعت لهم شيئا يذكر على الإطلاق . وسيجد القارئ لشاعر العراق سبقا ظاهرا حين يستعرض خرائده الجياد ، ونحن نجمل هنا الحديث عنه فى أغراض محدودة ، كيلا تتشعب بنا الدراسة إلى منادح شاسعة لانستطيع أن نحيط بعواملها الرحبة الفسيحة، ونبدأ أولا بالحديث عن فلسطين الشهيدة ! فمأساتها الفاجعة أحرى بكل تقديم

لا جدال فى أن فلسطين قد هزت عواطف العرب هزا عنيفا ، فترقرقت دموعهم حارة ملتهبة ، وانقدت جذوات الحزن والحسرة فى جوانحهم المشتعلة ، وقام الشعراء فى شتى الحواضر العربية بتخليد المأساة واستنهاض الهمم ، وقد طالعت أكثر ما قيل فى هذه الكارثة الدامية ، فوجدت ما يبقى من صدق الشعور ، ولوعة الإحساس ، فى طراز باهت لا يخرج عما قيل منذ قرون فى مأساة الأندلس ، وكأن الشعر قد رجع بأصحابه إلى الوراء فلم يتقدم خطوة واحدة ، عما كان عليه منذ ضياع هذا الفردوس البهيج ، فقصارى كل شاعر أن يسترجع ويطول دون أن يشرح البواعث الأصلية النكبة ، ويحلل الكوامن المقنعة من وراء الحجب والأستار ، وقد ربأ الجواهرى بأدبه أن يقف عند الصراخ والعويل ، فاندفع ينقب عن العلل الخبيثة التى نهشت هذا العظم الرميم ، ونفثت سمها القاتل فى الجسم الهامد فخر صريعا لا حراك به . ورد النكبة إلى ثلاثة عوامل بارزة كانت السبب الحقيق فى وقوع المأساة ، وأقوى هذه العوامل إنجلترا الغادرة ! فقد لبست ثياب الدهاء فأظهرت الوقوف على الحياد حاشدة وراءها جيشا عنيفا من الحقد والنفاق والابتسام ! مغافة أسرارها الخبيثة عن الأغرار من القادة والزعماء ، وقد وجدت أمامها — لسوء الحظ — فريقا يهيم بحبها فى كل واد ، وينزل على إرادتها فى كل مطلب، يهادن إذ تطلب الهدنة، ويحارب حين تدفع به إلى الخراب والوبال ، وقد مد له فى الذهب اللامع ، فملأ خزائنه ، وضاعت فلسطين شهيدة على يده ، وهذه حقيقة مرة يفصح عنها الشاعر فى شجاعة ويقظة إذ يصيح

حماة الدار لولا سم غاو ... أساغ شرابه فرط التمادى
ولوغ فى دم الخل الصافى ... فقل ماشئت فى الجنف المصادى
ولباس على ختل وغدر ... ثياب الواقفين على الحياد
وخب لا يريك متى يوافى ... فتأمن شره ومتى يعادى
تطلع إذ تطلع فى رخى ... وتقرع حين تقرع فى جماد
ولولا نازلون على هواه ... سكارى فى المحبة والوداد
نسوا إلا نفوسهم وهاموا ... غراما حيث هام بكل واد
أجرهم على ذهب تجروا ... فلسطينا على شوك القتاد
وقادوها له كبش افتداء ... صنيع الهاربين من التفادى
لكنتم طب علتها ، وكانت ... بكم تحدى على يد خير حاد

فإذا ترك إنجلترا الداهية وأذنابها الضعفاء ، لجأ إلى العامل الثانى ، فتساءل عن سر من أسرار النكبة فى رأيه ، وجهر بالحقيقة صارخة حين أعلن أن هذه المنكوبة لم تضم بددا بحيلة ساحر ، أو غضبة قدر لامرد له ، ولكن لأنها — وأخواتها — مسترقة مستذلة قد خيم فوقها الثالوث الأشأم، فلم يبرحها الجهل والفقر والمرض ، لحظة من اللحظات ، وقد مدت جحيمها بفريق من الطغاة ، قضوا على المواهب العالية ، وحاصروا العقائد والمبادئ ، ووضعوا الأرياء فى الأصفاد والأغلال، وقام فى كل قطر

شقيق حجاج طاغ يزيف إرادته ، وزياد باطش يعصف بحميته ، بينما يملأ يديه من الذهب السائل، ويرسل شهواته مطلقة الأعنة ، فلا تذر من شيء أتت عليه، ويفتح أبواب السجون لشهداء الرأى والوطنية والاستقلال ، حتى خمدت النخوة العربية ، ولحق الشرق العربي في لجج الاستعباد والهوان ... ذلك ما يفصح عنه إذ يقول :

حماة الدار ما النكسات سر ... ولا شيء تلفف في بجاد
ولا الغز يحار العقل فيه ... فيجهل ما سداس من أحاد
ولكن مثلما وضحت ذكاء ... ونور حاضر منها وباد
فما ذهبت فلسطين بسحر ... ولا كتب القضاء بلا مداد
وما كانت فلسطين لتبقى ... وجيرتها يصاح بها بداد
وست جهاتها أخذت بجوع ... وجهل واحتقار واضطهاد
شعوب تسترق فما يبقى ... على أثر لها ذل الصفاد
تساط بها المواهب والمزايا ... وتحتجز العقائد والمبادئ
وتطلع بين آونة وأخرى ... (بحجاج) يزيف أو (زياد)
فيذوى الخوف منها كل خاف ... ويصمى الجور منها كل باد
وتنتهب البلاد ، ومن بنيها ... يؤوب الناهبون إلى سناد
وتنطلق المطامع كاشرات ... تهدد ما تلاق بازدراد
وتنطبق السجون مزمجرات ... على شبه وظن واجتهاد

والعامل الثالث في رأى الشاعر هو ما لدى اليهود من منعة وعتاد ، فقد جذبوا الرأى العالمي والصحافة العربية بما توفر لديهم من حذق وإخلاص ، وقد تربوا تربية صالحة قوية، فحذقوا العلوم والصناعات ، وساهمت المرأة لديهم في البيت والمصنع والمعبد والقتال ، فليس فيهم من فقير يستجدي الأكف ، ولا ماق بقارعة الطريق تحمله أمه في الكور بجهد جهيد ، ولا زعيم خائن ينصب المال والجاه على حساب الضحايا والأبرياء ، ولا مماسيخ مشوهون قد حطمهم السغب والكلال !! هؤلاء جميعا لا يوجد أحد منهم لدى الأعداء، مع أننا لا نجد غيرهم في جيوشنا الواهنة المتخاذلة !! فكيف تتعادل الكفتان !! ويتحقق المحال ، هذا ما يصرح به الشاعر إذ يقول :

جيل تصرم مذ أبدى نواجذه ... وعد لهلفور في تهديدها قطعا
والساهرون عليه ، كل منتخب ... يبنى ويهدم إن أعطى وإن منعا
تهوى العروش على أقدامهم ضرعا ... وتحتمى سادة الدنيا بهم تبعا
مروت بالقوم (شذاذا) فما وقعت ... عيني على متمن فيره ضرعا
ولا بماق وأهليه بقارعة ... ولا بحاملة في الكور من رضعا
ولا بمن يحرس الناطور أرجلهم ... مهروءة سبهات الكلب منتزعا
وعند سلمته تصغى الجنون لنا ... نقل — وترخصها في الأزمة - السلعا
وجدتها عندهم زهوا معورة ... البيت والبحر والأسواق والبيعا
بينا تراقص بالأنغام صاحبها ... إذا بها توسع الألغام مزدرعا
ونحن ما نحن ! قطعان بمذأبة ... تساقطت في يدى رعيانها قطعا
في كل يوم زعيم لم نجد خبرا ... عنه ولم ندر كيف اختير واخترعا
أعطاهو ربهم فيما أعد لهم ... من الولائم صفوا فوقها القمعا
كأسين ، كأسالهم بالشهد مترعة ... والجماهير كأس سمها نقعا
قتالة ، خوف ألا تساغ لهم ... أوصاهو أن يسقوهم بها جرعا

وينطلق الشاعر في الحديث عن هؤلاء الزعماء ! وكيف زودهم الاستعمار بوصاياه الخارقة ، فصبوا على الشعوب كؤوس العذاب مترعة بالسم الناقع ، وقد أدركوا بعض الحذق ، فلم يصبوا الكأس مرة واحدة، فتقضى على الشعوب القضاء السريع ،

بل ساقطوا الجرع الدامية نقطة نقطة ، واتخذ وقتا طويلا في التعويم والتخدير ، بينما أعدت لهم كأس مترعة بالرحيق السلسال فنهلوا منها وعلوا كما يشاءون، وليس الزعماء جميعا طرازا واحدا، ففيهم من خلصت نيته وكان قصاراه أن تدمع عينه ثم يمسح دموعها بمنديله الرقيق !! وهو على إخلاصه لا يرضي الشاعر ! إذ يريد المتحفز الوثوب الكاشر الصائل ، وأنت تعجب له حين يدعو في مطلع قصيدته إلى اليأس ، فيخلق له الحسنات المتتابعة ، فهو ذو حد يقف لديه الأمل الحالم ، وهو مصحر الأرجاء لا يمد الظل على الحصى والأوشاب !! ولكن أي يأس ذاك ؟ ! إنه اليأس من الوعود الكاذبة ، والآمال المزعومة ، إنه اليأس الذي طوح بالباستيل فاقتلعه من أغواره ، وقذف بطارق إلى النصر بعد أن حطم سفينه ، ووقف من وراء البحر ، وأمام العدو ، فكان لابد من النصر في تلك الحنادس الحالكات

وإن من حسنات اليأس أن له ... حدا إذا كل حد غيره قطما
وأنه مصحر الأرجاء ، لا كنفا ... ان يلص ولا ظلا لن رتما
اليأس أطعم بالأشلاء مقصلة ... عدلا وطوح بالباستيل فاقتلما
وطارق منه أعطى النصر كوكبه ... نزرا وعدى إلى الإسبان فاندفما

ورغم الظلمة الداجية التي تكتنف الشاعر في حديثه عن المأساة ، ورغم شعوره بالملل الأصيلة الذكية، وإلمامه بالأوضاع الشائنة التي جلبت هذه الكارثة الروعة ، رغم ذلك كله يتعلل بالنصر القريب — بعد أن يأس من الوعود البارقة — وبعد خيوط الأمل للشباب المتوثب ، ويدعو إلى المثل في سبيل الحياة المرتقبة ؛ ويفسح الصدور للرصاص ، ويحذر من الخوف والخور والقنوط كما ينتقل بريشته الملهمة إلى طبيعة فلسطين ، فيصور الفجر المترقرق فوق الروابي الخضر كوشاح فضي لامع ، ويحمل إلى القارىء أنفاس الروح العاطرة ، ويسمعه ألحان الوحي في مهابطه المقدسة ؛ وغناء داود مع الطيور في أورشليم الخالدة ؛ ثم يدعو الشباب الفلسطيني المكافح إلى الاعتماد على نفسه ؛ فالشعوب العربية لا تجيد غير العويل والبكاء ؛ فهي تدق من الأسى راحا براح ! ويدا بيد ؛ ثم تقف عند ذاك !! فإن تجاوزته فإلى الخطب الرنانة والقصائد المسهبة ؛ وإن تجد أوجع من الحقيقة المريرة يعلنها الشاعر صريحة سافرة فيقول من قومه في يأس واكتئاب

أم القدس والتاريخ دام ... ويومك مثل أمسك في الكفاح
فلا تتخبطي ، فالليل داج ... وإن لم يبق بد من صباح
ولا تعمي بدا إنا بكاة ... عدك بالعويل وبالصياح
ولا نعمي بدا ، فالفعل جو ... مفيم عندنا والقول صاح
وان تجدي كأيانا نصيرا ... يدق من الأسى راحا براح
ولا قوما يردون الدواهي ... وقد خرست بألسنة فصاح

(يتبع)

محمد رجب البيومي

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر في الباكستان

ثمن الأول ثلاثون قرشا والثاني أربعون قرشا عدا أجرة البريد

والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة